١٠ ـ الفـــن

للأديب الفرنسي لوي هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

الفصل السابع — عن الأمس وعن اليوم

منذ بضعة أيام صحبت أوجيست رودان إلى متحف اللوفر إذ كان ذاهباً لمعاينة تماثيل أودون النصفية مرة أخرى . ولم نلبث أن وقفنا أمام تمثال فولتير Voltaire النصفي وعندئذ صاح رودان :

(تمثال فولتير للمثال أودون)

« يا له من أعجوبة ! إنه للخبث والدهاء بعينه . انظر! إن نظرة

الشزراء لتبدو كأنها ترقب خصماً . أما أنفه فأفعى مستدق كأنه أنف ثعلب ليخيل إليك أنه يتشمم المثالب والمعائب من كل ناحية . ولتستطيع أن تراه يسمع ... والفم ! يا له من فوز عظيم ! لقد حُدَّ بخطين من القذع والهجاء ، ويلوح كأنه ينمنم بالهكم والسخرية . ولا يسعك وأنت تنظر إلى فولتير هذا الذي يفيض نشاطاً وحيوية ، ويُفحص سقاماً ، والذي يعوزه الكثير من سمات الرجال — لا يسعك إلا أن تقول عنه إنه محدث بارع عجوز » . وبعد فترة من التأمل عاود حديثه قائلاً :

والعينان ! إني لأرجع دواماً لمشاهدتهما . إنهما شفافتان ، مضيئتان .

« ولكنك تستطيع أن تقول مثل هذا عن كل تماثيل أودون Houdon . لقد أدرك هذا المثال كيف يجعل بحدق العيون أكثر شفافية من أي مصور . إنه يخرقها ويثقبها ويبرزها ، ويجعل بها معالي ومواطن بحيث تحدث تأثيراً فذاً عند ما يقع عليها الضوء أو ينحرف عنها ، ويقارن تلك اللمعة الحية التي بإنسان العين . وما أعظم ما تختلف التعابير التي بعيون كل هذه الوجوه ! إنها تدل على الخبث من فولتير ، وعلى الصداقة الطيبة في فرانكلن ، والرقة البهجة في السيدة هودون ، وعلى المكر في ابنته وفي طفلتي برونيار الجيلتين . ولقد تعدل اللمحة عند هذا المثال أكثر من نصف التعبير ، فهو يقرأ الأرواح من الأعين التي لا تخفى عليه سراً . ولهذا فلا داعي للتساؤل عما إذا كانت تماثيله مشابهة لأصحابها مشابهة تامة » .

وهنا استوقفت رودان سائلاً :

« إذاً أنت ترى أن المشابهة صفة هامة لازمة ؟ » .

« لا ريب في ذلك فلا غنية عنها » .

ومع ذلك يزعم كثير من الفنانين أن بعض التماثيل والصور يمكن أن تبلغ حداً كبيراً من الجمال من غير أن يتوفر فيها شبه قوي . وأذكر بهذه المناسبة حادثاً نسب إلى المصور إنر Henner الذي شكت إليه سيدة من أن صورتها لم تأت شبيهها . فأجابها بلهجته الإلزاسية :

« هيه ياسيدتي ! بعد ما تموتين سوف يحسب ورثتك أنفسهم

سعداء لأنهم يقتنون لوحة طبية من ريشة إنير ، ولكنهم سوف لا يجهدون أنفسهم ألبتة ليتحققوا مما إذا كانت تشبهك » .

فقال رودان :

من المحتمل أن يكون المصور قال ذلك . وأغلب الظن أن هذا تسرع منه لا يمثل حقيقة أفكاره لأني لا أعتقد أن له مثل هذه الآراء الخاطئة في فن أبدي فيه براعة عظيمة وألمعية نادرة .

ولكن دعنا نتفهم أولا مدى التشابه المطلوب توفره في تمثال أو صورة ما .

« إذا قصر الفنان نفسه على إظهار القسمات السطحية كما هو الحال في الفوتغرافية ، أو إذا نسخ معالم الوجه تماماً كما هي من غير ما رجوع إلى الخلق أو اعتباره فهو لا يستحق أي ثناء أو إعجاب . أما الشبه الذي يتحتم عليه إظهاره فهو شبه الروح . وهذا وحده بيت القصيد . وهو ما يجب على التمثال أو المصور أن يبحث عنه تحت ستار القسمات . وقصارى القول يجب أن تكون كل القسمات حافلة بالتعبير أو بمعنى آخر تكون ذات فائدة في الإفصاح عن شعور باطن » .

« ولكن ألا يحدث في بعض الأحوال أن يكون الوجه مناقضاً للروح ؟ » .

« أبداً » .

« وهل نسيت نصيحة لافونتين التي تقول : « لا تحكموا على الناس من ظواهرهم ؟ » .

إن هذه النصيحة موجهة لأولئك الذين لا يتعمقون الأشياء ، إذ كثيراً ما تخدع الظواهر نظرتهم العجلى . ويكتب لنا لافونتين أيضاً عن الفأر الصغير الذي حسب الهرة أعظم الحيوان حدباً وعطفاً . ولكنه يتكلم عن فأر صغير أي عن عقل غر ضعيف تعوزه القدرة على التمييز . ولا يسع من يدرس الهرة بإمعان إلا أن يجد في ظاهرها ما يحذره من القسوة التي تستتر وراء تناومها وتكمن في وداعتها .

وفي مقدور من يستطيع قراءة الوجه أن يميز بين من يصطنع الحنان وبين من طبع عليه ، وإنه لمن أخص واجبات الفنان أن يكشف عن الحقيقة ولو من تحت المظاهر الخادعة .

ولتقرير الحقيقة أقول إنه لا يوجد عمل فني يحتاج إلى كثير من التعمق مثلما يحتاجه التمثال النصفي والصورة الإنسانية . وقد يقال أحياناً إن حرفة الفنان تتطلب مهارة يدوية أكثر مما تتطلب فطنة وذكاء . وما عليك إلا أن تدرس تمثالا نصفياً طيباً حتى تستطيع أن تدحض هذا القول وتصحح هذه الأغلوطة . إن عملا كهذا خليق بأن يترجم له . وأنت حين ترى تماثيل أودون مثلاً تخالك تقرأ فصولاً من مذكرات مدونة ، فترى فيها العصر الذي عاشت فيه ، والحرف التي احترفتها ، والأجناس التي انتمت إليها وأخلاقها الشخصية ، ترى كل ذلك فيها واضحاً جلياً .

وها هو روسو قبالة فولتير . ترى في نظرته حذقاً وذكاء وفطانة بالغة . وهذه ميزة عامة امتازت بها شخصيات القرن الثامن عشر . كانوا نقدة . كانوا يناقشون ويجادلون في كل المبادئ والمعتقدات التي كان مسلماً بها من قبل من غير ما تحقيق وتمحيص . كانت لهم أعين فاحصة باحثة نفاذة .

أما عن نشأته فهو من عامة السويسريين . كان سوقياً غير مثقف بقدر ما كان فولتير شريفاً نابهاً . وبينما ترى عظم وجنتيه البارز ، وأنفه القصير ، وذقنه المربعة تبين فيه ابن صانع الساعات والخادم الذي امتهن الخدمة من قبل .

وأما عن حرفته فهو الفيلسوف بجبهته المائلة المفكرة ، ينتمي لطراز قديم يتجلى في العصابة التقليدية التي تدور حول رأسه . زرى الهيئة بشكل ظاهر متعمد ، أشعث أغبر مما يجعله قريب الشبه من ديوجنيس أو مينيبس (Menippus)[1] هو للبشر الذي يدعو للرجوع إلى الطبيعة وإلى الحياة البدائية الفطرية .

« وأما عن أخلاقه الشخصية فترى تجهما في وجهه ينم عن كراهية للنوع الإنساني ، وحاجبيه القطبين وجبهته المقضنة ، ترى فيه الرجل الذي يشكو بحق ويتذمر من الظلم والاضطهاد » .

« قل لي بربك . أليس هذا التعليق على الرجل بأحسن وأدق من اعترافاته ؟

« ثم ها هو ميرابو (Mirabeau) . إنه عصر بأكمله . يبدو بحالة تحد . شعره المستعار مشوش غير مصفف ، بزته غير حسنة ، وهيئته زرية ، وكأن ريحاً من عاصفة ثائرة تمر على هذا الوحش

(١) كاتبان إغريقيان أسلوبهما ساخر تهكمي

الكاسر الذى يهم بالزئير أو يرعد بجواب على سؤال يلقى إليه .

« ولننتقل نشأته الآن : نتوسم فى طلعته النهيبة ، وحاجبيه الدقيقين للقوسين ، وجبهته المرتفعة المتحجرفة شريفا كان فى زمرة الأشراف ، ولكن ديمقراطية حديه الثقيلين المجدورين ورقبته الثائرة بين كتفيه جعلت الكونت دى ريكتى Comt de Riguetti — ميرابو — يجوز على تيير (Thiers)[1] ويفوز بعطفه ومراحمه — ومن ثم أخذ يدافع عنه .

(تمثال ميرابو للمثال أودون)

« ولننتقل إلى حرفته : إنه القاضى ، يبرز فمه إلى الأمام كأنه يوق على وشك أن ينفجر منه الصوت مجلجلا . يرفع رأسه عالياً لأنه قصير كما هو شأن جمهرة الخطباء . ونرى فى مثل هذا الطراز من الرجال أن الطبيعة تزيد فى قوة الصدر والأضالع على حساب الطول . أما العينان فلا تثبتان على شىء معين وإنما تدوران على جم غفير . يا لها من نظرة عظيمة غامضة ! ناشدتك الله خبرنى أليس من أجل الأعمال وتمام الفوز أن يمثل فى هذا الرأس وحده جمعاً حاشداً بل أمة بأسرها تصغى وتستمع ؟

ولنبحث بعد ذلك عن أخلاقه : لاحظ الشفتين الحساستين ، والنقر المزدوجة ، والمنخر المرتعد فترى الآثام والانغماس فى الشهوات وطلب الملذات مرتسمة عليها جميعاً . نعم تراها كلها هناك . وإنى لمخبرك بذلك .

وإنه لمن السهل الهين أن نقرأ فى كل تماثيل أودون مختلف الأخلاق على هذا النمط .

وهنا أيضا تمثال فرانكلن : ترى فيه هيئة عظيمة ، وخدين ثقيلين متدليين فتقول هذا هو الصانع السابق . ثم الشعر الرجل الطويل الذى يشبه شعر الرسل ، وحب الخير والمعروف مرتسما فتقول هذا هو ، ريتشارد المهذب الطيب القلب .

ثم إن جبهته العالية المائلة إلى الأمام تتسم بالعناد وتنم عن الثبات والصبر الذى أظهره فرانكلن فى تحصيل علومه ، وفى السمو بنفسه حتى أصبح معلماً نابهاً يشار إليه بالبنان ، وأخيراً إلى تحرير وطنه . ذكاء جم تفيض به العينان ويكمن فى زوايا الفم . على أن أودون لم ينخدع بجسامته فابان فيه مادية الرجل المالى الذى جمع مالا فأخلده ، ودهاء السياسى الذى استظهر بواطن السياسة الإنجليزية . فها هنا نرى أحد أسلاف أمريكا الحديثة على قيد الحياة

« عجباً ! ألا ترى فى تلك التماثيل البديعة أخباراً متقطعة عن نصف قرن ؟ وأن أكثر ما يسر النفس من تلك المذكرات المتخذة من الصلصال والرخام والشبه كما هو الحال فى أجمل القصص المكتوبة — هو جمال أسلوبها الناصع ، ورشاقة اليد التى دونتها وفيض تلك الشخصية الساحرة — الفرنسية لحما ودما — التى خلقتها . إن أودون هو سنت سيمون[1] لكن تنقصه نزعاته الأرستقراطية. هو فى ذكاء سنت سيمون ولكنه أسمى منه عاطفة. آه يا له من فنان مقدس ! » .

دكتور محمد بهجت

قسم البيانين

(١) كاتب ، ومؤرخ ، وسياسى فرنسى ولد سنة ١٧٩٧ ومات سنة ١٨٧٧ .

(١) أحد أفراد أسرة سنت سيمون العظيمة وهو لويس دى روفرى الكاتب والفاتن الذائع الصيت ولد فى سنة ١٦٧٥ ومات فى سنة ١٧٥٥ م .